

ادب عربي، سال ٨، شماره ٢
پايز و زمستان ١٣٩٥

ربُّ السيف والقلم في ميزان النقد

سيدابو الفضل سجادي*

الأستاذ المشارك في قسم اللغة العربية و آدابها بجامعة أراك

محمود شهبازي

الأستاذ المساعد في قسم اللغة العربية و آدابها بجامعة أراك

(من ص ١٣٣ الى ١٤٩)

تاريخ الاستلام: ١٣٩٢/٦/١٣، تاريخ القبول: ١٣٩٥/٩/٣٠

الملخص

يعدّ محمود سامي البارودي شاعراً وسياسياً مصرياً من شعراء القرن التاسع عشر، وقد كان له أكبر تأثير في إحياء الشعر العربي المعاصر وتجديده، حيث أوصله إلى نهر العذب، وأتى بالمضامين الجديدة في القوالب القديمة التي كانت من خصائص الشعر الكلاسيكي. رجع البارودي إلى العصور الذهبية للأدب العربي رجوعاً واعياً، وبتقليد القدماء ومعارضتهم حال دون السقوط الحتمي للشعر العربي. إن للبارودي تجديداً ملموساً في الشعر إضافة إلى التقليد، حيث كان مبدعاً مبتكراً في موضوعات مثل: الوصف، والشعر السياسي، والحنين، والتجربة الذاتية في الحرب، والهجاء الاجتماعي، والدعوة إلى العلم؛ وهو يعتبر رائد الشعر العربي الجديد في عصر النهضة. وأما الذي نحن بصدده في هذه المقالة فهو إلقاء الضوء على مواضع التقليد والتجديد في شعر البارودي ودوره في الأدب العربي الجديد.

الكلمات الدلالية: الشعر العربي المعاصر، محمود السامي البارودي، النقد، التقليد، التجديد.

١. المقدمة

استولى الضعف والركاكة على الشعر العربي مع أفول نجم الشعر في العصر العباسي الرابع، فانتهى العصر الذهبي للأدب العربي، وبدأ عصر الانحطاط، وساءت أوضاع الأدب ولاسيما الشعر، ودخل الشعر كثيرٌ من الأساليب الضعيفة والمعاني السقيمة، وأقبل الشعراء على الأغراض الفارغة والتافهة، الأمر الذي أدّى إلى ابتعاد الشعر عن رسالته الحقيقية أى الإصلاح والإيقاظ، وخلا من عناصر العاطفة الصادقة والإحساس والتخيل التي هي من العناصر الضرورية للشعر.

وفي بداية عصر النهضة كان الوضع على سابقه، وسار شعراء هذا العصر وفق أسلوب شعراء عصر الانحطاط، وسادت الزخارف اللفظية والحسنات البديعية والأساليب الضعيفة على الشعر العربي. ولم يكن الاختلاف بين العصرين اختلافاً كبيراً، لذلك احتاج الشعر والأدب إلى شاعرٍ فذ حتى ينقذه من هذه العوائق، وها هو سامي البارودي الذي هدى الشعر إلى طريقه الصحيح من جديد.

إنَّ مؤرّخي الأدب يصفون البارودي تارة برائد الشعر الجديد ويسمونونه تارة أخرى بشاعرٍ مقلِّد، ما قام بشئٍ إلا بتقليد القدماء؛ فأدّى هذا التقابل إلى إثارة هذه الأسئلة: لماذا أقبل الشاعر إلى التقليد؟ هل كان تقليده غير هادف، أو كان واعياً؟ هل أتى الشاعر بتجديد في الشعر العربي إضافة إلى تقليد الشعراء الفحول ولاسيما العباسيين؟ هناك بعض المقالات بالنسبة إلى البارودي، وأما في مقالتنا هذه فنحاول أن نقصد الشاعر وشعره، ونخلص إلى النتيجة التي لعلها أقرب إلى الحقيقة.

٢. مكانة البارودي ومزله

«مصر لم تُعرف في العصور الإسلامية على اختلافها بتفوقها في الشعر وإنما كان التفوق في الشعر من حظ بلاد عربية أخرى... فقد تفوق الحجاز ونجد في الجاهلية والإسلام، وتفوق العراق في العصر الإسلامي تفوقاً ملحوظاً، وتفوقت الشام والعراق في العصر العباسي تفوقاً رائعاً، وتفوق الأندلس كذلك تفوقاً رائعاً حقاً... ولكن مصر ظلّت متواضعة في الشعر... ولأول مرة في تاريخ الأدب العربي ظهر شاعر مصري مبرز متفوق لا يكاد يجاريه شاعر آخر في قطر من الأقطار العربية في أواخر القرن الماضي، وهذا هو الشاعر البارودي، فهو من هذه الجهة قد أتاح لمصر أن تأخذ مكانة ممتازة في الشعر العربي» (حسين، ١٩٧٨: ٨١ و ١٩٨١: ٤٤٨).

«و أيضاً فإنَّ محمود سامي البارودي كان قد استطاع أن يردَّ إلى الشعر روح الحياة وأن يزرع في النفوس أنَّ ما يُرى عند بعض المعاصرين من قصور أو تحرُّر من الأغلال العثمانية وعن تصوير مشاعرهم الشخصية والقومية لا يرجع إلى طبيعته وإنما يرجع إلى طبيعتهم» (ضيف، ١٩٦١: ٤٥).

«ومن هذا المنظار تبدو أهمية شاعر كمحمود سامي البارودي... فقد عارض لغة زمانه بالعودة إلى العصر العباسي وما تميز به من متانة وفخامة، فأعاد إنتاج ما حملته تلك اللغة من قيم؛ هكذا شكل شعره بين النصوص القديمة والحديثة، وفي هذا يكمن دوره الإيجابي بالنسبة لعصره. غير أن شعر البارودي ظلَّ في ملامحه الأساسية اتباعياً» (خالدة، ١٩٧٩: ٢٠).

كان البارودي رائد الشعر الجديد ومعلم الشعراء، وهو الذي أرجع مكانة الشعر إليه في عصر كاد الشعر والشعراء أن يفتقدوا كلَّ القيم التي عرفوها في القديم والجديد. «إنه مثلَّ عصره أتم التمثيل، وكان صدى لحوادث بيئته، فكان قدوة لمن جاء على إثره في التجديد، أضف إلى ذلك أنه علَّمهم كيف يتجهون إلى الأدب العربي في أزهى عصوره، ويعترفون من ذخائره، بحيث لا تفتنى شخصياتهم، فيقوى أسلوبهم، وتشتق ديابحتهم، ويتعدون عن الحلوى المتكلفة؛ وبذلك سار الشعراء من بعده إلى الأمام، ولم يرجعوا أبداً إلى الضعف والركاكة. ومن تلمذ على البارودي واقتفى أثره عدد كبير من الشعراء العربية كشوقي وحافظ والرافعي وصبري» (الدسوقي، ١٩٧٥: ٢٩٩/١).

إن العُلم الذي رفعه البارودي أطلَّ على كلِّ فيما بعد، وإن كانت مدارسهم تختلف بين المحافظة والتجديد؛ لذلك يمكن القول: إنه إن لم يكن البارودي، لم تبدأ الأمة العربية حياتها الشعرية المعاصرة الغنية. استطاع البارودي أن يرجع ازدهار الشعر إليه، بحيث لم يكن طراوته أقل من عصوره.

إن البارودي اطلَّ على شعر الشعراء الكبار في العصر العباسي في المرحلة الأولى، وكانت هذه خطوة صحيحة ومهمة، واستفاد من المصادر الأصلية للشعر العربي. وفي المرحلة الثانية وهي مرحلة استقلال شخصيته أظهر ما يجري في عصره ورسم أحاسيسه ومشاهداته في الشعر، وهذا الأمر هو الباعث على اعتباره رائداً للشعر الجديد.

٣. تقليد البارودي في الشعر

إنَّ إعجاب البارودي بالشعراء القدامى ساقه إلى تقليدهم في قصائدهم المشهورة؛ فلذلك استطاع أن يسيطر على لغتهم الخالصة كثيراً. وكان توفيقه في تقليدهم جديراً بالملاحظة،

والشاهد على ذلك هو الشعر الذي قاله في معارضة قصيدة البردة للبوصيري على نفس الوزن والقافية في مدح الرسول (ص) (ميرسليم ١٣٧٥: ٣٥).
كان البارودي يقلد الشعراء الفحول القدامى في الأغراض الشعرية، خاصة الشعراء العباسيين. وإضافة على الأغراض يقلدهم في الأسلوب والمعنى، وكأنه نسي أنه في مصر، وبعيد عن نجد وروايتها، وهو يقول:

يا سعدُ قل لي فأنت أدري متى رعانُ العقيق تبذو
أشفاقُ نجداً وساكنيه وأين مني الغداة نجدُ
(البارودي، ١٩٩٥: ١٦١)

و يقول في مكان آخر:

أين ليالينا بوادي الغضا؟ ذلك عهدٌ لَيْتَهُ ما انقضى
كنتُ به من عيشي راضياً حتى إذا ولتْ عَدِمْتُ الرضا
(المصدر نفسه: ٢٩٧)

أقبل الشاعر على التشابيه القديمة في الغزل والنسيب، ويتحدث عن الغزال والقمر في السماء...، ويشبه حبيبته بالمهاة، ونظرها بالباترة، وقدّها بالغصن ويقول:

إذا نظرتُ أو أقبلتُ أو تهللتُ فويلُ مهاةِ الرملِ والغصنِ والبدر
(المصدر نفسه: ١٩٧)

فالشاعر حفظ الأشعار الجميلة للعصر العباسي، وتعلم الأسرار والفصاحة للغة العربية، وأثرت مطالعته في الأشعار القديمة على بنية قصائده وموضوعاته، وظهرت عناصر الشعر القديم في المفردات والأشكال والموسيقى والمعاني والأغراض وأساليبه الشعرية.
امتدّت ثقافته الشعرية من العصر الجاهلي إلى زمنه، وتوجد في قصائده الألفاظ البدوية؛ فلذلك نرى ألفاظ الشعر الجاهلي بكثرة في القصيدة التي قام بمعارضة معلقة عنترة، وأثرت قراءته المستمرة في الشعر القديم على صورته الشعرية، بحيث يظن القارئ أنه أمام شاعر جاهلي مثل قصيدته اللامية التي يقول فيها:

ألا حيٍّ من «أسماء» رسم المنازل و إن هي لم ترجع بيانا لسانل
خلاءً تعفّتها الروامس^٣ والتقت عليها أهاضيبُ الغيومِ الحوافل
(المصدر نفسه: ٤٢٦)

في شعر البارودي تبرز الخصائص الرائعة لموسيقى الشعر العربي وأوزانه وقوافيه، وفي صوته رنين الموسيقى الشعرية للمتنبى والبحتري وأبي نواس وأبي فراس الحمداني والشريف الرضي. وكان شاعرنا يحاول أيضاً أن يتبع أبا العلاء المعري في الموسيقى الشعرية في لزومياته، فنرى كثيراً من هذا النوع في شعره، نحو الشعر التالي الذي أنشده بعد الثورة العراقية:

يا ناصرَ الحقِّ على الباطلِ خذ لي بحقي من يدي ما طلي
جارَ على ضعفي بسلطانهِ و ما رثي للمدمع الهاطلِ
مِن غير ما ذنب سوى منطقي ذي رونق كالصَّارم القاطلِ^٤
(المصدر نفسه: ٤٤١)

أثرت معاني الأشعار القديمة على شعر البارودي كثيراً، على سبيل المثال تحدّث السؤال عن ضرورة حفظ المرء لعرضه نقياً مصوناً:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل
(سؤال، ١٩٩٦: ٦٦)

يقول البارودي:

فما الفقر إن لم يدنس العرض فاضحاً و لا المال إن لم يشرف المرء ساتر
(البارودي، ١٩٩٥م: ٢٤٠)

و إذا النابغة الذبياني صور هلعه من غضب النعمان عليه تصويراً حسياً، قائلاً:

فبت كائي ساورتنى ضئيلة من الرقش في أنيابها السّم النافع
(النابغة الذبياني، ١٩٨٠: ٨٠)

يقول البارودي:

فبت كائي بين أنياب حية من الرقطه أو في بُرثني أسد ورد
(البارودي، ١٩٩٥: ١٥٧)

ثم نراه يقول في مجال الخمرة والفخر الذاتي:

فلما رأيت الليل ولّى وأقبلت طلائع من خيل الصباح تغير
ذهبت أجر الذيل تيهاً وإثما يتيه الفتى إن عفّ و هو قدير
(المصدر نفسه: ٢٠٥)

و هو يذكّرنا بقول الأخطل:

إذا ما نُدِمِي عَلَنِي ثُمَّ عَلَنِي
خَرَجْتُ أَجْرُ الذَّيْلِ زَهُواً كَأَنِّي

قال بشار بن برد:

إِنَّ فِي بُرْدِي جِسْماً نَاهِلاً

ثَلَاثَ زَجَاجَاتٍ لَهْنٌ هَدِيرٌ
عَلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَمِيرٌ
(البستاني، ١٩٩٧: ٣٢٢/١)

لَوْ تَوَكَّأْتُ عَلَيْهِ لِأَهْلِهِمْ
(بشار، ١٩٨٣: ٢١٢)

فأخذه البارودي، فقال:

لَمْ تَدْعُ مَنِّي الصَّبَابَةَ إِلَّا

شَبْحاً شَفَّهَ السَّقَامَ فَذَقَّا
(البارودي، ١٩٩٥: ٣٦٩)

يقول البارودي في مجال الحكمة:

وَمَا أَحْسَبُ الْأَيَّامَ تَصْفُو لِعَاقِلٍ

وَلَكِنْ صَفَاءُ الْعَيْشِ لِلْجَاهِلِ الْعُمَرُ
(المصدر نفسه: ٢٥٩)

وهذا من قول المتنبي:

ذَوُ الْعَقْلِ يَشْقَى فِي النِّعَمِ بِعَقْلِهِ

وَأَخُو الْجَهَالَةِ فِي الشَّقَاوَةِ يَنْعَمُ
(المتنبي، د.ت: ١٢٤/٢)

يقول البارودي في مجال الحديث عن فضل الكلام والشعر:

فَمَا كُلُّ مَنْ حَاكَ الْقِصَائِدَ شَاعِرٌ

وَلَا كُلُّ مَنْ قَالَ النِّسِيبَ مُتَمِّمٌ
(البارودي، ١٩٩٥: ٥٣٤)

و هذا يُعيد إلى الأذهان قول المتنبي:

إِذَا كَانَ مَدْحٌ فَالنِّسِيبُ الْمَقْدَمُ

أَكْلُ فَصِيحٍ قَالِ شِعْراً مُتَمِّمٌ
(المتنبي، د.ت: ٣٥٥/٢)

ويقول البارودي في الفخر بعقريته الشعرية:

وَمَا صَرَّنِي أَنِّي تَأَخَّرْتُ عَنْهُمْ

وَفَضَّلِي بَيْنَ الْعَالَمِينَ شَهِيرٌ
وَبَدَّ الْجِيَادُ السَّابِقَاتِ أَحْيَرُ
(البارودي، ١٩٩٥: ٢٠٦)

فِي رُبَّمَا أَحْلَى مِنَ السَّبْقِ أَوْلُ

يُعيدُ هذان البيتان إلى الأذهان قولَ أبي العلاء المعري:

و إني وإن كنتُ الأخيرَ زمائه لآتٍ بما لم تستطعه الأوائلُ

(البستاني، د.ت: ٣/٣١٠)

كان البارودي يستخدم بعض الأوقات معاني الشعراء الفحول القدامى أو ألفاظهم غير واع، بسبب أنه كان حافظاً شيئاً كثيراً من الشعر؛ فلذاك هذا حذو شعراء مثل: أبي نواس، ومسلم بن وليد، وأبي تمام، والبحري، والمتنبي، ويذكر هؤلاء الشعراء في أشعاره ويقول:

مضى «حسن» في حلبة الشعر سابقاً وأدرك لم يسبق ولم يأل «مسلم»
و بارهما «الطائي» فاعترفت له شهوذاً المعاني بالتي هي أحكم
و أبدع في القول «الوليد» فشعره على ما تراه العين وشيئاً ممنم
و أدرك في الأمثال «أحمد» غايةً تبذ الحطى ما بعدها متقدم
و سرت على آثارهم و لربما سبقت إلى أشياء والله أعلم

(البارودي، ١٩٩٥: ٤٩٩)

كان أبو نواس سابقاً على شعراء زمانه في التجديد، ومسلم بن الوليد في فن البديع، وأبو تمام بمعانيه العميقة، والبحري بألفاظه الجزلة وعباراته السلسة، والمتنبي بحكمه النافذة. فالبارودي يعترف بأنه عمل على نمط هؤلاء الشعراء، ويقول: إنه لربما كان أفضل وأسبق منهم في بعض الخصائص الشعرية.

و السؤال المتبادر إلى الذهن هنا لماذا أقبل الشاعر إلى التقليد في الشعر؟

«و قد وقف على الأطلال والدمن، وأتى بشعر جاهلي الروح والمعنى والوجه والزي، ولايمت إلى عصره وعصر الحضارة بصلة. وهو لم يقله لأنه مقتنع بأن ذلك هو الأسلوب الواجب اتباعه، والنهج الذي عليه أن يسلكه، ولكنه يريد أن يمتحن شاعريته، وهل في استطاعته أن يحاكي القدماء حتى في وقوفهم على الأطلال والدمن؟ وليس أمامه أطلال ودمن تهيج شاعريته، وتثير عبرته فإذا استطاع أن يقول مثلما قالوا فهو شاعر فحل. ولا شك أن هذا النوع من الشعر خال من العاطفة، وفيه كثير من الصنعة والتكلف» (الدسوقي، ١٩٧٥: ٢٤١).

«استطاع البارودي بقوة شاعريته القوية أن يمزج سلاسة العبارة واتباع سنن الشعراء العباسيين مثل المتنبي بقدرة بيانه وتجربياته الشخصية، وينشد أشعاراً بعيداً من التصنع والركاكة، الأشعار التي كانت مرآة ونموذجاً لفكرته القوية وشخصيته الفاتحة، فهو رقي

الشعر العربي الذي كان محصوراً على التلاعب بالكلمات والأفكار السخيفة، وأتى بتجربياته الشخصية في أشعاره» (بدوي، ١٣٦٩: ٢٦).

يقول حنا الفاخوري: لم يكن للبارودي بدٌّ من معارضة الشعر الذي استقامت عليه شاعريته، وتملّت من روعته حافظته وخياله. والواقع أن البارودي نظم في أغراض الشعر القديم، وتحرّى مجارة الأقدمين في أساليبهم ومعانيهم، فوقف على الأطلال، وذكر نجداً ورباها وحيوانها... بيد أنه إذا قلّد الأقدمين فعن مقدرة شعرية ولغاية مفيدة، فجاء تقليده أنفع ما في شعره للأدب الحديث، لأنه ردّ إلى المعاصرين يقين القدرة على الاحتذاء للشعراء العباسيين والمخضرمين والجاهليين في ميدان اللغة والأساليب، وكانوا في حاجة إلى هذه الثقة بأنفسهم ولغتهم بعد ردة العصور التركية... والحق أن البارودي قد ارتفعت به همته إلى مجارة كبار الشعراء القدماء ومحاكاة جزئتهم ونصاعة لغتهم محاكاة مطبوعة ليس فيها من التقليد سوى الرغبة، وكأن البارودي هنا ممثل قدير لبس دور الشاعر البدوي، فوفاه لغة وشعوراً وزياً وحركة، فخلقه خلقاً جديداً، وجعل له تماثلاً من نفسه وحياته (الفاخوري، ١٣٧٧: ٩٦١).

«عندما نتكلم عن تقليد البارودي القدماء فهذا لا يعني أنه صار في تقليده تصويراً موافقاً لهم. يقول شوقي ضيف: هو لم يكن مقلد القدماء بالمعنى السيء للتقليد، إنما كل ما هناك أنه يريد أن يرُدّ إلى شعرنا جزلته ونصاعته وورصاته، أما بعد ذلك فشخصيته في شعره قوية بارزة، شخصية تستكمل حريتها، وليس هذا فحسب، فإنه يستشعر الحرية القومية، فيتحدّث عن مطامح أمته السياسية، ويأسى لما تتردى فيه من ضعف وخذلان، ويعرض للأحداث الخطيرة التي مرت بها، ويقارن بين ماضيها وحاضرها، ويصف أمجادها الغابرة» (الخنفاحي، ١٩٨٥: ٦٠/١ و ضيف، ١٩٦١: ١٤٣).

ظهر البارودي في عصر انقطعت علاقة الشعراء بمصادر الشعر القديم، وليس لديهم أمل للتححرر والخروج من الإسارة. وهو بظهوره أرجع الشعر العربي إلى أساليبه الخالصة القديمة، وأبعد عنه الضعف والركاكة، وثبت اللغة العربية الفصحى، وأكد على أنه تراث قيّم، يجدر بالشعراء أن يبقوا في ظله الواسع ويستنبروا به.

لذلك فهو منع السقوط الحتمي للشعر العربي بتقليد القدماء ومعارضتهم وبإنشاد أشعار بعيدة من الضعف والركاكة، ولم يكن عمله هذا عملاً سهلاً للوصول إلى هذا الهدف. يقول طه حسين:

«وهو في الوقت نفسه لم يكن مقلداً بالمعنى الواضح المؤلف لكلمة التقليد، كان مقلداً في رصانة الأسلوب وجزالته، وكان مقلداً في القصيدة على نسقها المعروف، كان في هذا كله مقلداً، ولكنه كان ذا شخصية قوية بارزة، فكان شعره يصور نفسه، وكان شعره كذلك يصور وطنه وبيئته، وكان يصور الأحداث الخطيرة السياسية التي خضع لها وطنه في تلك الأوقات» (حسين، ١٩٧٨: ٨٢).

و يقول الخفاجي:

«نحن لانعتبره مقلداً صرفاً لسببين: أولهما: الإحادة في أغراضه ومطابقتها لواقع الحياة، وثانيهما: أن نفسه لما فيها من استعداد وراثي ولما يحيط بها من أجواء دافعة أشربت أساليب هؤلاء الشعراء حتى صارت طريقة البارودي أشبه بمشاعر الجاهليين المبعثة من النفس بلا قصد ممجوج وتكلف ممقوت. ومن هنا نقضي بما قضى به المنهج العلمي أن البارودي بعث الشعر الجاهلي من رقدته وإن لم يجد فيه» (الخفاجي، ١٩٦٥: ١٨٠/٥).

لذلك لا يمكن أن نعتبر البارودي مقلداً صرفاً في إنشاد القصيدة، وعمله دون أي ابتكار وفي مستوى عمل تقليدي، بل تعدد القيمة الفنية لشعره أفضل من الحركة التقليدية عنده نظراً إلى ظروف زمانه.

٤. مضامين البارودي التجديدية في الشعر

«يختلف النقاد حول مجدد الشعر في هذا العصر فقال جماعة: إنه البارودي بلا منازع، وقال آخرون: إن الشعر لم ينل حظه من التجديد إلا عند شوقي، على أن للبارودي وشوقي آثاراً تجديدية في الشعر العربي لا يمكن إنكارها... استفاد البارودي من الشعر الجاهلي والعباسي فاطلع عليه وقرأه في تضاعيف كتبه، وقد كان الشعراء في هذا العصر لا يعنون بدراسة مسائله أو الانتهاال من بحاره الزاخرة ومنابعه الأولى؛ فجاء البارودي واستطاع بثاقب فكره وثقافته العريضة أن يعث الشعر القديم من مرقده وأن يخرج من مكنه، وبذلك أعاد للشعر سابق صولته، وأهدى إليه عنفوانه وقوته» (الخفاجي، ١٩٦٥: ١٧٩/٥).

و يعتقد البارودي أن الشعر هو مرآة الزمان، وموت إن كان بعيداً عن الحياة والبيئة، لذلك يتضمن شعره قديم اللهجة جديد التزعة. وكان يرسم في الشعر شخصيته في المجالات العسكرية، وآلامه وأحزانه، وآمال شعبه، والعدالة والمساواة، ويقف أمام العادات السيئة. يمكن تجديد البارودي في الوصف إلا أنه خلافاً للشعراء الذين يتحدثون عن الوصف ضمن قصائدهم يخصص قصيدة كاملة بالوصف. تعتبر السياسة من الأغراض التي ظهرت فيها شخصية الشاعر حلية، والتي رسم الشاعر فيها طلبات الناس وأحزانهم وآلامهم والظلم الذي

يعانون منه في حياتهم، وما كان يسوقه في هذا المسير هو روح الحرية عند الشاعر؛ لأنه من دعاة الحرية الذين كانوا يحاولون إنقاذ الناس من القيود وإحقاق حقوقهم الضائعة؛ لذلك هو أول من فتح أمام الشعراء المعاصرين باب الشعر السياسي والوطني، وأظهر الشعراء بعده هذا التحول الكبير في أشعارهم وصاروا ألسنة الناس المتحدثة.

لبارودي قصائد طويلة يعبر فيها عن تجاربه في الحياة، وهو من جهة أخرى شاعر الذاتية والوجدان، ولذلك تعددت موضوعاته التجديدية من الحنين إلى الغربية والاعتراب إلى الشكوى من المجتمع إلى تجربته الذاتية في الحرب إلى شعره السياسي إلى المهجاء الجديد والوصف والدعوة إلى العلم وسوى ذلك من موضوعات تدلُّ دلالة قاطعة على الدور الكبير الذي نهض به هذا الشاعر (موسى، ١٩٩٩: ١١١).

٤-١. الحنين

المقصود بالحنين هو الأشعار التي أبانت عن حزن الشاعر ولوعته أو اشتياقه إلى شيء أو مكان أو شخص ما.

كانت مصر موطناً لأبياء البارودي وأجداده، فأحبها حباً جارفاً، فلمَّا كان بعيداً عنها كان يخفُّ إليها بروحه التي تسبقه إلى ربوع الشباب وملتقى الأصدقاء، ولكن حنينه يختلف بين قصيدة وأخرى، فمرة يكون هادئاً، فيه شيء من الأمل الباسم باللقاء القريب، ويكون مرة أخرى عاصفاً يقتلع شجيرات الأمل وورود المستقبل (المصدر نفسه: ١١١).

وعندما ابتعد عن مصر للمشاركة في حرب جزيرة كريت سنة ١٨٦٥م وتشوَّق إلى مصر تشوَّق الملهوف إلى لقاء مصر قال:

و طرحتُ في يُمْنِي العَرامِ عِنايِ	بلدٌ خلعتُ بها عِذارَ شيبتي
ألمى الظلالِ و زهرها مُتداني	فصَعِيدها أحوى النباتِ وسرْحها
و المرءُ طوعُ و تقلُّبُ الأزمانِ	فارقتُها طلباً لِمَا هو كائنٌ
عن مصرٍ ولتهدأ صروفُ زماني	فليهنأ الدهرُ الغيورُ برحلي

(البارودي، ١٩٩٥: ٥٥٩)

وحيثما نفي إلى سرنديب أنشد أشعاراً كثيرة في فراق مصر. كانت هذه الأشعار تصدر من عاطفته الجياشة وتذيب أيَّ تكلف وصنعة، وهو يقول:

ليت شعري متى أرى روضة المنـ
حيث تجري السفينُ مستبقاتٍ
قد أحاطت بشاطئيه قصورٌ
ذاك مرعى أنسي وملعبٌ لهوي
لست أنساه ما حييتُ و حاشا
يـل ذات النخيلِ و الأعنابِ
فوقَ هـمـرٍ مثل اللجينِ المذابِ
مشرقاتٌ يلحنَ مثل القبابِ
و جنى صبوتي و مغني صحابي
أن تراني لعهدهِ غيرَ صابي
(المصدر نفسه: ٥٤)

ظلّ البارودي طوال عمره يبحث عن الصديق الصادق والخل الوفي، وهو يطلب منه ما ليس في الإنسان من نزاهة وحب وإحياء، وكأنه يتوخى المثال في الصديق والحبيب والعلاقات الإنسانية، ولذلك هو قريب من الرومانسيين الذين ابتعدوا عن الواقع إلى المثال، فهو ثائر على الذين يستغلون صداقاتهم لمصالحهم الشخصية. ظلّ البارودي حريصاً على صداقته التي كانت تربطه بأدباء مصر والوطن العربي، فلما كان مع الدولة العثمانية في حرب الروس سنة ١٨٧٧م أرسل قصيدته الدالية إلى أستاذه وصديقه الشيخ حسين مرصفي، وقال فيها معاتباً على قلة مراسلاته له (موسى، ١٩٩٩: ١١٣):

و من شيمِي حبُّ الوفاء سجيّةً
و لكنّ إخواناً بمصرَ ورفقّةً
أحنُّ لهم شوقاً على أنّ دوننا
و ما خيرُ قلب لا يدومُ له عهدٌ؟
نُسونا فلا عهدٌ لديهم ولا وعدٌ
مهامةٌ تعيا دون أقربها الرُبُدُ
(البارودي، ١٩٩٥: ١٣٠)

٢-٤. التجربة الذاتية في الحرب

نشأ البارودي في بيت عسكري، وهو فارس وشاعر معاً، وقد تربى تربية عسكرية، فدخل الكلية الحربية وتخرّج فيها، ثم تقلّب في مناصب عسكرية وسياسية مختلفة أدّت به أخيراً إلى النفي بعد الثورة العراقية التي خاض غمارها (موسى، ١٩٩٩: ١٢٠).

سافر البارودي مع الجند المصري إلى جزيرة كريت سنة (١٨٦٥) حين خرج سكاكها عن طاعة الدولة العثمانية، وكان البارودي أحد ضباط الكتيبة المصرية الكبار في هذه الحرب، وقد تقدّم الفرسان حين رست السفينة إلى شاطئ الجزيرة، وأخذ يشجّع الفرسان على التزال والطعان. وقد وصف الشاعر المعركة التي دارت رحاها هناك وصفاً حياً (المصدر نفسه: ٥٤)، فقال:

أَحَذَ الكرى بمعاقدِ الأَجفانِ
و الليلُ منشورُ الذوائبِ ضاربٌ
لا تستينُ العينُ في ظلماته
تستُنُّ عاديةً ويصهلُ أجرْدُ
و الخيلُ واقفةٌ على أرسامها
وضعوا السلاحَ إلى الصباحِ وأقبلوا
حتى إذا ما الصبحُ أسفرَ وارتمت
فإذا الجبالُ أسنةٌ وإذا الوها
و هَفَا السُرى بأعِنَّةِ الفُرسانِ
فوق المتالعِ والرُّبا بِجِرانِ
إلا اشتعالُ أسنةِ المُرَّانِ
و تصيحُ أحراسٍ ويهتفُ عاني
لطرادِ يومِ كريبهةٍ و رهانِ
يتكلمونَ بألسنِ النيِرانِ
عيناى بين ربًّا و بين محايي^{١٢}
ذُ أعنةٌ و الماءُ أحمَرُ قاني
(البارودي، ١٩٩٥: ٥٥٧)

و لا ينسى البارودي نفسه في هذه الحرب، فهو فارس صنديد صبور على المكاره والشدائد، وقد لخص تجربته في حرب كريت بمقطوعة لا يزيد عدد أبياتها على أربعة:

و لما تداعى القومُ واشتبك القنا
و زَيْنَ للناسِ الفرارُ من الردى
و دارت بنا الأرضُ الفضاءُ كأننا
صبرتُ لها حتَّى تجلَّتْ سماؤها
و دارت كما تهوى على قُطبها الحربُ
و ماجت صدورُ الخيلِ والتهبَ الصُربُ
سُقينا بكأسٍ لا يُفِيقُ لها شربُ
و إني صبورٌ إن ألمَّ بي الخُطبُ
(المصدر نفسه: ٦٣)

و لما أعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية سنة (١٨٧٧) استنجدت تركيا بمصر، فأجدهما بحملة كان البارودي أحد قواتها. وكان البارودي قد أبدى شجاعة متميزة في هذه الحرب، فأنعم عليه السلطان برتبة أمير اللواء. وصف البارودي هذه الحرب وبطولته فيها بثلاث قصائد في ديوانه، وهي ذات موضوعات مختلفة، أهمها الحنين إلى مصر واشتياقه إلى الوطن والحبيبة، ووصفه للملاحم التي جرت في تلك الأصداع البعيدة وموضوعات أخرى، ففي حائثته يتوقف - بعد حنينه إلى الديار - عند وصف تلك البلاد:

لعمري لقد طال النوى و تقاذفت
و أصبحتُ في أرضِ يحارُ^{١٤} بها القُطا
فلا جوًّا إلا سَمَهَرِيٌّ و قاضب
ترانا بها كالأسدِ ترصدُ غارةً
مَهامهُ دونَ الملتقى و مطاوح^{١٣}
و ترهبها الجنانُ و هي سوارح^{١٥}
و لا أرض إلا شمريٌّ و سابح
يطير بها فتقُّ من الصبحِ لامح

فَلَسْتَ تَرَى إِلَّا كُفَاةً بَأْسًا
وَأَبْطَالَ وَالصَّبْحُ بِاسْمٍ
وَجُرْدًا تَخُوضُ المَوْتَ وَهِيَ ضَوَابِحٌ^{١٤}
وَأَوِي إِلَى الأَدغالِ^{١٥} وَالليلِ جَانِحِ
(المصدر نفسه: ٩٥)

٣-٤. الدعوة إلى العلم

عاش البارودي في عصر الدعوة إلى العلم والإقبال عليه. والجديد في هذا الأمر أن البارودي قصيدة ميمية قالها في صباه يدعو فيها إلى العلم، ويبيّن فيها أن العلم قوة، وأن قوة الأولين في علومهم، وآثارهم علامات على علومهم، وهو يفاضل بين العالم والجاهل إلى غير ذلك. والمهم في الأمر أن هذا الموضوع قد تناوله الشعراء من بعده. وقد تناول البارودي في هذه القصيدة الأفكار التي تنوّلت من بعده، وأهمّها المفاضلة بين صاحب العلم وصاحب المال، ففضّل الأول منهما:

وَلَا تُظُنُّوا نَمَاءَ المَالِ وَانْتَسِبُوا
فَالمَعْلَمِ أَفضَلُ ما يَجُويهِ ذُو نَسَمِ^{١٨}
فَرُبَّ ذِي ثَرَوَةٍ بِالْجَهْلِ مُحْتَقِرٍ
وَرُبَّ ذِي خَلَّةٍ^{١٩} بِالْعِلْمِ مُحْتَرَمٍ
(المصدر نفسه: ٤٥٩)

وهو يدعو إلى بناء المدارس، ويشبّهها بالأشجار المتنوعة الثمار والألوان والفوائد، فهي تجعل الصبيّ ذا منطق سليم، وكأنه الكهل المحرّب، وهي التي تُخرج بين صفوفها الشعراء والأدباء ورجال الحقوق والمهندسين والأطباء وسواهم:

بِقوَّةِ العِلْمِ تَقوَى شوكةُ الأُممِ
لو أنصَفَ الناسُ كانَ الفضلُ بينهم
فاعكُفْ على العِلْمِ تبلغُ شأوَ مِثْلَةٍ
شيدُوا المدارسَ فهي الغرسُ ان بَسَقَتِ
مَعْنَى علومِ تَرى الأبناءَ عاكفةً
من كلِّ كهلٍ الحجا^{٢٠} في سنِّ عاشرَةٍ
كأنَّها فلَكٌ لاحت به شُهْبٌ
يَجنونُ من كلِّ عِلْمٍ زهرةً عَبَقَتِ
فالْحِكمُ في الدهرِ منسوبٌ إلى القلمِ
بِقِطْرَةٍ من مِدادٍ لا يسفكُ دمِ
في الفضلِ محفوفِهِ بالعزِّ والكرمِ
أفنائِهِ اثمرتَ غِضًّا من النعمِ
على الدروسِ به كالطيرِ في الحرمِ
يكادُ منطقُهُ ينهَلُ بالحِكمِ
تُعني برونقِها من أنجمِ الظلمِ
بنفحةٍ تبعثُ الأرواحَ في الرممِ
(المصدر نفسه: ٤٥٧ و ٤٥٩)

٥. وجهة نظر الأدباء حول البارودي

يتهم بعض النقاد البارودي بأن أشعاره في الوصف والغزل والحكمة لا تصدر عن خبرته الذاتية الحية، بل هي رنين الألفاظ كما وعته أذنه مما قرأ للأقدمين. فأدونيس يتهم شاعرية البارودي بابتعاده عن العصر والمعاصرة. وبالنسبة لهذا الاتهام فتكفينا العودة إلى ديوان البارودي مؤونة الرد، فهل وصفه للحرب التي خاضها في كريت والبلقان بعيداً عن العصر والمعاصرة في منظور أدونيس؟ وهل شعره في الحنين، وهو في سرنديب بعيداً عن أسرته وأهله وأصدقائه ووطنه بعيد عن العصر والمعاصرة؟ (موسى، ١٩٩٩: ١٠٠).

وقد استهمل محمد حسين هيكل مقدمته لديوان البارودي بقوله: «شعر البارودي حياته. فكلُّ قصيدة في ديوانه صورة لحالة نفسية من حالات هذا الشاعر الملهم، والديوان في مجمله صورة العصر الذي عاش فيه، وللبيئة التي أحاطت به، وللنهضة المتوثبة في الحياة حوله، وللثورة التي تمخّضت عنها تلك النهضة، وللنكسة التي أصابت النهضة والثورة كليهما، والتي نقلت الشاعر من وطنه إلى منفاه ليقيم به سبعة عشر عاماً وبعض عام، يستأثر بها الشعر جميعاً (البارودي، د.ت: ٥).

و يقارن العقاد بين شعره وشعر الذين سبقوه بقوله: البارودي كان إمام المدرسة الشعرية التي خلفت مدرسة العروضيين، ونعني بالعروضيين أولئك الذين كانوا ينظمون القصائد ويخوضون في الشعر؛ لأنهم كانوا يعتبرون النظم حقاً أو واجباً على كل من تعلّم العروض ودرس البيان والبديع وما إليهما من أصول الصناعة (المعوش، ١٩٩٩: ٥٢٥).

يقول خليل مطران في شعر البارودي: «إنه لشاعر، وناهيك به من شاعر، لا أبالغ فيه أنه نسيج وحده، ونادرة الزمان. على أن أحسن ما في شعره الصياغة، سما إلى منتهى الإجابة، وبرز على المتقدمين فضلاً عن المتأخرين» (موسى، ١٩٩٩: ٥٦).

و حسب البارودي فخراً أنه أحيا الشعر بعد مواته على غير مثال سبق من معاصريه، ونقول مع هيكل: إنه كان مجدداً في كل بيت من أبياته حتى في معارضاته للقدماء والنهج على منهجهم (الدسوقي، ١٩٧٥: ٣٠٠).

«مع ذلك يبقى البارودي حلقة مهمة في تاريخ الشعر العربي الحديث، إنه بهذه العودة إلى القدامى قد وصل الأجيال التي تلت بمنابع الشعر العربي الأصيلة في عصر افتقد النماذج الإبداعية. هكذا أرسى القاعدة التي هيأت للذين جاؤوا بعده، أن يتزودوا بذلك الموروث وينطلقوا بدءاً منه في مغامرة التجديد والإبداع» (سعيد، ١٩٧٩: ٢٧).

يقول عزالدين إسماعيل: «وبنهضة الشعر مرة أخرى على أيدي البارودي وصبري وشوقي وحافظ، والوصول به إلى مستوى أروع من نماذجه القديمة، تهيأ الجو الحقيقي لكل من شاء التطوير» (إسماعيل، ١٩٨٨: ٤٥).

و أخيراً نختتم المقال بكلام أحمد حسن الزيات الذي يقول: «إن كان لامرئ القيس فضل في تمهيد الشعر وتقصيده، ولبشار في ترقيته وتجويده، فللبارودي في إحيائه وتجديده. كان الشعر في عهده صورة مشوهة من آثار القرون الأخيرة المظلمة، نظم مرتبك، وتكلف باد، وصناعة فاشية، ومعنى سقيم، فجلاه في خاطره، وصقله على لسانه، فجاء منضد اللفظ نقيّ المستشف» (الزيات، ١٩٨٥: ٤٩٣).

٦. النتيجة

قام سامي البارودي بإحياء الشعر العربي في الزمان الذي شاعت الصنائع اللفظية والأغراض التافهة، أضف إلى ذلك أن بعض الشعراء عزموا على أن يستخدموا الألفاظ الدارجة في أشعارهم، لذلك كان الشعر في أشد الحاجة إلى شاعر عبقرى يهدي الشعراء إلى الطريق الصحيح، وها هو البارودي الذي نجى الشعر من الآفات، وأرجع مجده السابق إليه.

قلد البارودي فحول الشعراء القدماء ولاسيما العباسيين، وحذا حذو كبارهم، وبالاتباع من القدماء بلغ درجة خلقت فيها أشعاره من الألفاظ السخيفة والأساليب الضعيفة. ومعظم شعره قوي، ونظمه عال، وقوافيه وأوزانه مستحكمة. ويمكن القول إن تقليده كان لغرض مفيد ألا وهو إنقاذ الشعر من الآفات التي أحاطت به. والجدير بالذكر أن تقليده لم يكن تقليداً صرفاً، ولم تفن شخصيته فيهم؛ إنه كان ذا شخصية قوية، يرسم حوادث عصره ووقائعه. وبتقليده علّم معاصريه كيف يتجهون إلى الأدب العربي في أزهى عصوره، ويتزودون من ذخائره دون أن تفنى شخصياتهم، فهو بعمله هذا منع الشعر من السقوط الحتمي.

وأما بالنسبة إلى الأغراض الشعرية فيجب أن نقول: إن البارودي هو شاعر الفخر والحماسة في الدرجة الأولى، حيث نرى في معظم قصائده أبياتاً حول هذين الغرضين. ويعتبر الوصف والشعر السياسي من الأغراض التي احتلت حيزاً كبيراً من ديوانه. وبالنسبة إلى المدح والهجاء يمكن القول: إنه لم يكن مداحاً ولا هجاء، ولم يقبل على التكسب بالمدح، والقصائد التي قالها في مدح حكام زمانه قليلة، ولم يجعل ملكته الشعرية في خدمة الحكام أبداً. والجدير

بالذكر أن الشاعر نظم قصيدتين في مدح الرسول الأعظم^(ص) وتشمل إحداهما ٤٤٧ بيتاً، وأنشدت في معارضة بردة البوصيري. وله قصيدة في مدح علي^(ع).

يقول الأدباء والنقاد: إن العمل المهم الذي قام به البارودي هو الرجوع إلى شعر العصر العباسي في أزهى عصوره وبعثه من جديد. إضافة إلى ذلك إن للبارودي تجديداً في مجال الشعر السياسي والوطني والوصف والهجاء الاجتماعي والدعوة إلى العلم، وهو الذي رسم في أشعاره آمال شعبه وميولهم إلى الحرية والعدالة والمساواة. وبالنسبة إلى الوصف فقد خصَّص الشاعر قصائد كاملة بهذا الموضوع. وفي الهجاء الاجتماعي عبّر عن عيوب المجتمع بصورة حيّة، ودعا الناس إلى إصلاحها، لذلك هو رائد نهضة الشعر العربي على حسب اعتقاد مؤرخي الأدب.

الهوامش

١. الرعان: ج الرعن: انف الجبل الشاخص البارز، والمقصود من العقيق وطن الشاعر.
٢. خلاء: خالية. الأهاضيب: دفعات الأمطار المتتابعة.
٣. مفرده الرامسة: الرياح التي تغطي آثار الديار بما تثير
٤. القاطل: القاطع
٥. الرقط: ضرب من الحيات.
٦. التيه: التكرير.
٧. الجاهل الغمر: الجاهل الذي لم يجرب الأمور.
٨. يذُّ: غلب وسبق.
٩. الجياد: مفرده جواد: الفرس السريع.
١٠. المهامه: جمع مهمه، وهو المفازة البعيدة الأطراف.
١١. الريد: النعام.
١٢. الحائي: جمع الحناة: منعطف الوادي.
١٣. المطاوح: المهالك.
١٤. يجار: يضل
١٥. يراد بالسوارح هنا: السائرة المطلقة.
١٦. الضوايح: جمع ضايح وضبيح الخيل: صوت أنفاسها عند العدو.
١٧. الأدغال: جمع دغل: وهو الشجر الكثيف الملتف.
١٨. ذو نسم: الإنسان.

١٩. ذو حلة: الفقير المحتاج.

٢٠. الحجا: العقل

المصادر

- اسماعيل، عزالدين، الشعر العربي المعاصر، بيروت، دار العودة، الطبعة الخامسة، ١٩٨٨.
- البارودي، محمود السامي، الديوان، شرح علي عبد المقصود، بيروت، دار الجليل، ١٩٩٥.
- بدوي، مصطفى، كزيبه شعر معاصر عرب، ترجمه غلامحسين يوسفى و يوسف بكار، تهران، اسپرک، ١٣٦٩ ش.
- البستاني، بطرس، أدبا العرب، بيروت، دارالجيل، ١٩٩٧.
- البستاني، فؤاد أفرام، المجاني الحديث، بيروت، دارالمشرق، د.ت.
- بشار بن برد، الديوان، بيروت، دار المعارف، ١٩٨٣.
- حسين، طه، المجموعة الكاملة، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨١.
- _____، التقليد والتجديد، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٨.
- الخفاجي، محمد عبد المنعم، الأدب العربي الحديث، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٨٥.
- _____، دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه، بيروت، دار الجليل، ١٩٩٢.
- _____، قصة الأدب في مصر، بيروت، دار الجليل، ١٩٦٥.
- الدسوقي، عمر، في الأدب الحديث، لبنان، دار الفكر العربي، الطبعة الثامنة، ١٩٧٥.
- سعيد، خالدة، حركة الإبداع، بيروت، دار العودة، ١٩٧٩.
- سموأل بن عاديا، الديوان، بيروت، دار الجليل، ١٩٩٦.
- ضيف، شوقي، الأدب العربي المعاصر، مصر، دار المعارف، الطبعة الثامنة، د.ت.
- _____، البارودي رائد الشعر الحديث، مصر، دار المعارف، الطبعة الثانية، ١٩٦١.
- الفاخوري، حنا، تاريخ الأدب العربي، تهران، توس، ١٣٧٧ ش.
- المتني، أبو الطيب أحمد، الديوان، شرح أبي البقاء العكبري، بيروت، دار المعارف، د.ت.
- المعوش، سالم، الأدب العربي الحديث، لبنان، دار الموسم، ١٩٩٩.
- موسى، خليل، البارودي رائد النهضة الشعرية الحديثة، دمشق، بيروت، دار ابن كثير، ١٩٩٩.
- ميرسليم، مصطفى، دانشنامه جهان اسلام، تهران، بنياد دائرة المعارف اسلامي، الطبعة الثانية، ١٣٧٥ ش.
- النايعة الذبياني، أبو أمامة، الديوان، بيروت، دار صعب، ١٩٨٠.